

آغا محمد سليم اختر*

دور القرآن الكريم فى صيانة اللغة العربية ونشرها

الحمد لله رب العلمين ، والصلوة والسلام على خاتم النبيين وأشرف المرسلين. سيد الاولين والآخرين ، محمد بن عبدالله النبى الاسمى العربى ، وعلى آله الطاهرين الطيبين وأصحابه أجمعين.

أما بعد : فانه قد تقرر عند أهل العلم بالتواتر التاريخى أن الله سبحانه وتعالى راعى مكة وأهلها مراعاة خاصة منذ القدم. منذ كان إبراهيم واسماعيل عليهما السلام رفعا القواعد من البيت بواد غير ذى زرع ، و كان إبراهيم عليه السلام دعا ربه : ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أئمة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكروا.^١

ومنذ كان إبراهيم عليه السلام أذن فى الناس بالحج ، استثنأ لأمم ربه تعالى حيث قال : وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق^٢ منذ ذلك الحين ، كان هذا البيت المتيق مهوى قلوب الناس ينسلون إليه من كل حذب وصوب ، فهو بيت ربهم وموضع حجهم.

وكان الله سبحانه وتعالى قد استجاب دعوة إبراهيم عليه السلام التى دعا فيها : ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم^٣ وهى لمكة وأهلها ظروفاً عديدة وأسباباً سياسية و دينية واقتصادية ، جعلتها مركزاً هاماً للتجارة فى الجاهلية.

كان يوجد فى الجزيرة العربية طريقان عظيمان للتجارة بين الشام و المحيط الهندى ، إحداهما : تسير شمالاً من (حضر موت) إلى (البحرين) على الخليج العربى ، ومن ثم إلى الشام ، والثانية : تبدأ من (حضر موت) ايضاً وتسير معاذية للبحر الاحمر متجنباً صحراء نجد ، و مبتعدة عن هضبات الشاطىء ووعورتها ، و على هذه

*شعبة اللغة العربية الكلية الحكومية بفصل آباد

١- سورة ابراهيم : ٣٧

٢- سورة الحج : ٢٧

٣- سورة البقرة : ١٢٩

الطريق الاخيرة تقع مكة^١ :

«ثم ما لبث أهلها أن يقتبسوا من رجال القوافل سر السفر وفائدتها ، فسافروا أنفسهم على هيئة القوافل إلى بلاد اليمن والشام»^٢.

وكان من تدبير الله العزيز الحكيم أن ينشأ بهذه البلدة المقدسة عباقرة، وينبج فيها نوابغ ، لانه كان قدر لها أن تكون أول مركز للدعوة الاسلامية ، تلك الدعوة التي متأخذ على يد الظالم وتقوم على جنب المظلوم وتعين الفقير والضعيف. و متصل هذه الدعوة إلى أرجاء العالم وتنجذب الاقوام والائمم فتأتيها تلبى ويدخل الناس في دين الله أفواجا. أذكر من هؤلاء النوابغ والعباقرة قصي بن كلاب، ثم هاشم الذي هو أول من بدأ الرحلتين : رحلة الشتاء إلى الشام ورحلة الصيف إلى الحبشة^٣ وأخذ من القبائل العربية (إيلاناً)^٤ موثيق أن لاتتعرض للقوافل التجارية على جانب ، ومن ملوك الشام واليمن والحبشة على جانب آخر كتباً ليمتكنوا على الصدور والورود في تلك البلاد للتجارة بالحرية الكاملة.

١- انظر : «تاريخ الادب الجاهلي» للدكتور على الجندى : ٨٦/١

٢- «المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام» للدكتور جواد على : ٦/٤

٣- كذا ذكره اليعقوبي (تاريخ اليعقوبي ج ١ ، ص ٢٤٢ - ٢٤٣) والمعروف عند المفسرين أن الرحلة في الشتاء كانت إلى اليمن لأنها حارة ، و الرحلة في الصيف إلى الشام ، لأنها بلاد باردة (انظر الجامع لاحكام القرآن للقرطبي ج ٢ ، ص ٢٠٦)

و قد روى المقدسي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله : (رحلة الشتاء والصيف) ، قال : كانوا يشتون بمكة ويصيفون بالطائف (أحسن التفسير في معرفة الاقاليم ، ص ٩٥). ذكر القرطبي هذه الرواية و علق عليها بقوله : «وهذه من أجل النعم أن يكون لقوم ناحية حر تدفع عنهم برد الشتاء ، و ناحية برد تدفع عنهم حر الصيف ، فذكرهم الله تعالى هذه النعمة» (الجامع لاحكام القرآن ، ج ٢ ، ص ٢٠٦)

٤- فسر الجاحظ بأنه جعل قرضه هاشم على القبائل لحماية مكة من الصعاليك وذؤبان العرب (انظر : رسائل الجاحظ ، ص ٧٠. إخراج الاستاذ حسن السندويي). و تعرض الثعالبي لهذا الموضوع (الايلاف) يقول فيه : «وكان هاشم يأخذ الايلاف من رؤساء القبائل و سادات المشائر لخصلتين : احدهما : ان ذؤبان العرب وصعاليك الاعراب و أصحاب الغارات و طلاب الطوائف كانوا لا يؤمنون على أهل الحرم ولا غيرهم. (بقية الحاشية في الصفحة الآتية)

وفي مكة البيت الحرام الذي يقدمه معظم قبائل العرب ، وكانت قريش سداية هذا البيت ، يقومون بالناية به ، والمحافظة عليه ، فأكسبهم ذلك احتواً عظيماً عند سائر العرب. وكان الحج وسيلة الاجتماع والانتقاء والتعارف ، كما كانت تقام في مواسم الحج أسواق تجارية وأدبية مثل سوق (عكاظ) وسوق (مجنة) وسوق (ذي المجاز) ، وفي هذه الأسواق كان العرب من جميع أنحاء الجزيرة العربية يقدمون بسلعهم للتجارة ، وزادهم الادبي للمشاركة في الاجتماعات التجارية ، واللقاءات الادبية. وكانت سوق (عكاظ) أعظم هذه الأسواق ، وأحفلها وأكثرها اجتماعاً. ويبدو أنه لم يكن عرياً ذا مكانة إلا كان يحضرها. وكما كانت تنزلها قبائل «قريش وهوازن ، وغطفان ، وخزاعة ، والاحابيش ، وعضل ، والمصطلق ، وطوائف من أنفاء العرب»^١ كان الناس «يؤمونها من العراق والبحرين واليمامة وعمان والشعر واليمن وسائر أطراف الجزيرة»^٢. «... وكان كل شريف انما يحضر سوق بلده إلا سوق عكاظ ، فانهم كانوا يتوافون بها من كل جهة ...»^٣ حتى الذين لم يحضروها تتبعوا ما حدث بها. «و العرب اجتمعوا في هذه المواسم فاذا رجعوا إلى قومهم ذكروا لقومهم ما رأوا وما سمعوا»^٤ فكل ما يحدث في هذه السوق ، وكل ما قيل كان يشيع في أرجاء الجزيرة العربية. حسب هذه السوق شرفاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحضرها. يدعو الناس إلى ربهم ، ففي حديث جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنه : «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبث عشر سنين يتبع الناس

(من الصفحة الماضية)

والخصلة الأخرى : ان أناسا من العرب كانوا لا يرون للحرم حرمة ، ولا للشهر الحرام قدراً ، كبنى طى ، وخثعم ، وقضاعة وسائر العرب يحجون البيت و يدينون بالحرمة له. ومعنى «الايلاف» أنما هو شيء كان يجعله هاشم لرؤساء القبائل من المرائب ، ويحمل لهم متاعاً مع متاعه ، ويسوق إليهم إبلاً مع ابله ليكفيهم مؤنه الاسفار ، ويكفي قريشاً مؤنة الاعداء فكان ذلك صلاحاً للفريقين ، إذا كان المقيم رابحاً والمسافر محفوظاً فأخصب قريش ، وأتاه خير الشام واليمن والحبشة وحسنت حالها وطاب عيشها (انظر : «ثمار القلوب» للثعالبي ، ص ١١٥ وما بعدها).

- ١- أخبار مكة للأزرقي ، ص ١٣١
- ٢- أسواق العرب لسعيد الأفغاني ، ص ٢٩١
- ٣- آثار البلاد وأخبار العباد للقرظيني ، ص ٨٥
- ٤- بلوغ الأرب للالوسي ، ج ١ ، ص ٢٦٧

في منازلهم بالموسم بمجنة و عكاظ يبلغ رسالات ربه . . . » وكان النبي صلى الله عليه وسلم في حادثة سنة حضر مرة (عكاظ) فرأى الناس قد احتشدوا في ناحية حول شيخ وقور على وجهه سمات السماحة والحكمة ، وهو على جملة الاورق يخطب ، وقد بقيت هذه الذكرى عالقة بذهن رسول الله صلى الله عليه وسلم طيلة حياته ، حتى بعد أربعين عاماً «لما قدم وفد (إياد) على النبي صلى الله عليه وسلم قال : ما فعل قم بن ساعدة؟ قالوا: مات، يا رسول الله! قال: كأنني أنظر إليه بسوق (عكاظ) على جمل أورق ، وهو يتكلم بكلام عليه حلوة ، ما أجدني أحفظه ، فقال رجل من القوم : ألا أحفظه يا رسول الله. قال كيف سمعته يقول؟ قال : سمعته يقول : . . . » فساق عليه خطبته.

قال الأزهري : «(عكاظ) : هي اسم سوق من أسواق العرب وموسم من مواسم الجاهلية ، وكانت قبائل العرب تجتمع بها كل سنة ويتفاخرون بها ويحضرها الشعراء فيتنافسون ما أحدثوا من الشعر ثم يتفرقون»^١ ويروى لنا الاصفهاني أن (عمرو بن كلثوم) لما قتل (عمرو بن هند) ملك البصرة ، وقال في ذلك :

* ألا هبى بصحنك فاصبحنا *

قام بها خطيباً بسوق عكاظ ، «وقام بها في موسم مكة»^٢ وروى الاصفهاني ايضاً عن الأصمعي : «كان يضرب للناطقة قبة من آدم بسوق (عكاظ) ، فتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها . . . »^٣ وروى عن الأعمش (أبى بصير ميمون بن قيس) أنه «كان يوافي سوق عكاظ في كل سنة»^٤

١- انظر هذه الرواية بالتفصيل في «دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة» للبيهقي، باب : ذكر العقبة الثانية : ج ٢ ، ص ٤٤٢ وما بعدها.

٢- النظر الاغانى للاصفهاني (إخراج : ابراهيم الأبياري) ج ١٥ ، ص ٥٥٧ - ٥٥٧٢. وانظر الخطبة في «البيان والتبيين» للمجاهد (بتحقيق عبدالسلام محمد هارون) ج ١ ، ص ٣٠٨ - ٣٠٩ ، ففيه بعض الزيادات ليس في رواية الاغانى.

٣- لسان العرب (سادة عكاظ) ج ٧ ، ص ٤٤٧ (دار صادر - بيروت)

٤- الاغانى (إخراج إبراهيم الأبياري) ج ١١ ، ص ٣٨٤٠

٥- المصدر السابق ، ج ١١ ، ص ٣٧٩٢

٦- المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٣٢٣٣

وإننا لعلم أنه كانت لكل قبيلة لهجة خاصة ، ولكن هذا الاحتكاك و الاتصال في المواسم والاسواق بهذا طريقاً إلى إنشاء لغة مشتركة عامة يفهمها النجدى والعجazy ، والمضري واليمنى ، والتميمي والهنلى ، والبكرى والتغلبى ويضاف إلى ذلك أن المكالة المرموقة التى كانت تتمتع بها قريش قد لعبت دوراً هاماً فى توحيد هذه اللغة وصقلها. فاتصالهم بالقبائل العربية الأخرى على جانب ، واحتكاكهم بالأمم الأجنبية على جانب آخر ، زوداهم بالثروة اللغوية وصقلا لغتهم. روى لنا أن الشعراء كانت تعرض أشعارها على قريش ، فما قبلوه منها كان مقبولاً ، وما ردوه منها كان مردوداً. تقدم عليهم (عاقمة بن عبدة) فأشدهم قصيدته التى يقول فيها :

* هل ما علمت وما استودعت مكتوم *^١

فقالوا : هذه سمط الدهر ، ثم عاد إليهم العام المقبل ، فأشدهم :

طحايبك قلب فى الحسان طروب

بعيد الشباب عصر حان مشيب

فقالوا : هاتان سمطا الدهر.^٢

فهذه اللغة العامة المشتركة التى اتخذها الشعراء والخطباء وسيلة التعبير ، هى التى سماها علماءنا القدامى اللغة الفصحى ، وهى التى اختارها الله سبحانه وتعالى للقرآن الكريم و سماها «اللسان العربى المبين» يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ نزل به الروح الامين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربى مبين ﴾^٣ وإلى هذه يشير قول عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه لزيد بن ثابت رضى الله تعالى عنه ، حين أراد أن يجمع الناس على قراءة واحدة ، (قال) : وإذا اختلفتم فى شىء فردوه إلى لغة قريش^٤ ولم يكتف القرآن الكريم بلغة قريش وإنما وسع مجاله وترك أحياناً لغة قريش ليختار لغة قبيلة أخرى ، إذا وجد بها كلمة أحسن رونقاً وروعاً. فمثلاً : أن أهل الحجاز يقولون : (أنا منك براء) ولغة تميم : (أنا منك

١- عجزه : * أم حبلىها إذ نأتك اليوم مصروم *

٢- الاغانى (إخراج إبراهيم الأبيارى) ج ٢٤ ، ص ٨٤٢٣ و انظر «مواسم

الادب» ج ١ ، ص ٢٠٩

٣- سورة الشعراء : ١٩٣

٤-

برىء)١ فقد نطق القرآن العظيم بلهجة تميم ثلاث عشرة مرة ، وباللهجة الأخرى مرة واحدة حيث قال : لم وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعملون٢

و فى اللسان٣ : (الحوب) بفتح الحاء لأهل الحجاز و (الحوب) بضمها لغة تميم. ولم يستخدم القرآن العظيم فى هذه الكلمة إلا لهجة بنى تميم. قال الله جل شأنه : لم ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ، إنه كان حوباً كبيراً٤ و أمثال ذلك كثيرة ، معروفة منقولة فى كتب اللغة و فقها ، و إنما اريد أن أبين أن القرآن الكريم قد اختار تلك اللغة المشتركة العامة الشائعة بين أنحاء الجزيرة العربية التى كان الشعراء و الخطباء يستخدمونها، مثلها كمثال اللغة التى تستخدم فى أيامنا للكتابة ، و الأدب ، و فى الجرائد و المجلات. هيا الله سبحانه و تعالى لها ظروفًا عديدة لتنشأ و تتطور حتى تصلح لتكون لغة كلامه المجيد ، ثم اختارها القرآن الكريم فصقلها و ألبسها جمالاً و روعة مع رونقها و وسعها حتى رفعها إلى تلك الدرجة الرفيعة العالية التى تنقطع دون بلوغها الأعناق ، و تتلاشى دون وصولها الأذهان و تنكسر دون تحقّقها الهمم.

كانت العرب ، قبل نزول القرآن يستعملون كلمة «الصلواة» للدعاء ، أو لحركة الوركين ، فالنظروا كيف وسع القرآن الكريم معناها ، فصارت تصور لنا تلك الصورة الرائعة للعبادة الخاصة. وكذلك الصوم ، معناه : الإمساك عن الشيء ، والحج ، معناه : القصد ، والزكوة ، معناه : التطهر أو النمو ، ولكن معانيها تغيرت تغيراً واضحاً باستعمال القرآن الكريم لها.

كان العرب ملوك الكلام ، و لما بدأ القرآن ينزل ، و قرعت آياته مسامعهم ، أعجبوا به ، أعجاباً شديداً و وقفوا عند روعته حيارى ، و أخذ جماله بقلوبهم فظفروا

١- المزهر للميوطى، ج ٢ ، ٢٧٦ - ٢٧٧

٢- سورة الزحرف : ٢٦

٣- لسان العرب (مادة : ح و ب)

٤- سورة النساء : ٢

٥- أخرجه الحاكم (بشيء من الاختصار) فى المستدرک (ج ٢ ، ص ٥٠٦ - ٥٠٧) فى تفسير سورة المدثر وصححه و وافقه على ذلك الذهبي. و البيهقي فى «الدلائل» من طريق عكرمة عن ابن عباس رضى الله تعالى عنها. وانظر «الميزان فى تفسير القرآن» للسيد محمد حسين الطباطبائي ج ٢ ، ١٧٤ - ١٧٥ ، (ط. المكتبة الاسلامية و مكتبة جعفرى بطهران)

مبهوتين لا يستطيعون رده ، و ذهبت معانيه بألبابهم فصاروا متحيرين لا يتمكثون على منازعته - رويوا^١ لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتعدى فى الحجر ويقرأ القرآن ، فاجتمعت قريش إلى الوليد بن المغيرة - فقالوا : يا أبا عبد شمس! ما هذا الذى يقول محمد؟ أشعر هو أم كهانة أم خطب؟ فقال : دعونى أسمع كلامه ، فدنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد! أنشدنى من شعرك. قال : ما هو شعر ، ولكنه كلام الله الذى ارتضاه لملائكته وأنبيائه و رسله ، فقال : اتل على منه شيئاً. فقرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم حم السجدة. فلما بلغ قوله : لم فإن أعرضوا ، فقل أنذرتمكم صاعقة ، مثل صاعقة عاد وثمود لم قال : فاقشعر (الوليد) وقامت كل شعرة فى رأسه و لحيته ، وصر إلى بيته و لم يرجع إلى قريش من ذلك.

فمشوا إلى أبى جهل فقالوا : يا أبا الحكم! إن أبا عبد شمس صبا إلى دين محمد ، أما تراه لم يرجع إلينا ، فقدأ أبوجهل إلى الوليد فقال : يا عم! نكست رؤسنا وفضحتنا وأشمت بنا عدونا و صبوت إلى دين محمد. فقال : ما صبوت إلى دينه ولكنى سمعت كلاماً صعباً تقشعر منه الجلود ، فقال له أبوجهل : أخطب هو؟ قال : لا! إن الخطب كلام متصل ، و هذا كلام منشور ، ولا يشبه بعضه بعضاً ، قال : أشعر هو؟ قال : لا! أما إنى لقد سمعت أشعار العرب بسيطها و مديدها ، و رملها و رجزها ، و ما هو بشعر. قال : دعنى أنكر فيه.

فلما كان من الغد ، قالوا له : يا أبا عبد شمس ، ما تقول فيما قلناه؟ قال : قولوا : «هو سحر فانه آخذ بقلوب الناس» هكذا كان القرآن الكريم ، و ما زال يتجدهم قرع مسامعهم ، و لو استطاعوا لافقدوا بكل ما كان فى وسعهم ليردوا عليه فكفاهم و ما أقوا أنفسهم فى كير الحروب ، و كانت قريش أهل تجارة ، فكانوا أحذر الناس من الحروب ، ولكنهم لم يجدوا منفذاً ولا مفرأ ، و ما استطاعوا أن يعارضوا القرآن العظيم ، فما زال هو يفعل فعله ، يدخل فى أعماق نفوسهم و يستقر فى قارة قلوبهم ، فأحيا القلوب الميتة ، و أخصب الصدور الجدية فأقبلوا إليه يجلونه ، يستخرجون لآليه الثمينه ، و يقتبسون من أنواره الجلييلة. هذا لبيد ، كان شاعراً فحلاً ، فلما أسلم ترك قول الشعر. و لما أمر عمر بن الخطاب ، أبا موسى الاشعري ، أمير الكوفة أن يأمر من قبله أن يكتب له ما كان قاله من شعر جديد ، كتب لبيد سورة البقرة ، و قال : أبدلنى الله هذا بذاك.

هكذا شغل القرآن الكريم بالهم ، فاهتموا به اهتماماً شديداً و عنوا به عناية بالغة و قد عرفوا أن القرآن و السنة - المصدرين الأساسيين الاصيلين للشريعة الاسلامية كانا بلسان عربى مبين ، و تلتتهما هذه الائمة بكل محبة و إجلال و بلغت فى خدمتهما

ما لم تباغ أية أمة في العالم لحفظ مصادر شريعتهم فنفرعت لخدمتهما علوم كثيرة كما حاولوا محاولات جلية وسعوا مساعي جميلة لحفظ هذه اللغة الكريمة و تدوينها و تسجيلها.

وكانت من أهم تلك العلوم التي أنشئت لخدمة القرآن العظيم وسنة صاحب القرآن ، صلى الله عليه وسلم - التفسير و أصول التفسير ، و علوم القرآن ، و علم القراءة ، و علم أسباب النزول ، و النسخ و المنسوخ ، و غريب القرآن ، و في الحديث علوم الحديث و أصوله ، و علم أسماء الرجال ، و أسباب ورود الحديث ، و غريب الحديث ، ثم علم الفقه و أصوله ، و علوم اللغة و فقها ، كما أنشأت حركة تدوين المعاجم فقيدت الثروة اللغوية و دوت حيث لاتباهاها أية لغة عالمية أخرى من هذه الناحية. ولما كانت حدود المملكة الإسلامية طفقت تتوسع و تمتد إلى أقاصى أنحاء العالم ، و كثر اختلاط العرب بالعجم ، و نتيجة لذلك ، تسرب إلى لغتهم اللحن و بدأ يكثر حتى خيف على ذهابها ، أسست عندئذ علوم العربية من النحو و الصرف و العروض و فقه اللغة و غيرها لصيانة هذه اللغة - لغة القرآن و الحديث - شوائب اللحن و التغيير. و كان مرد هذه العلوم - حتى العلوم الدينية في كثير من الأحيان - و أساسها الشعر العربى القديم ولذلك نجد فى كتب التفسير و غريب القرآن و الحديث و النحو و الصرف و غيرها كثرة الاستهاد به. وهذا أمر طبعى ، لان الامة العربية فى عصرها ما قبل الإسلام لم تكن لديها وسائل متوافرة لتسجيل وقائعها و أياها ، و حفظ تاريخها - من الكتابة و ما إلى ذلك - فكانت ، بما أودع الله تعالى فيها من الحص المرفه و الوجدان الشعرى مع قوة الحفظ وحدة الذهن و براعته البالغة ، اتخذت الشعر مستودعاً لوقائعها و أياها و تاريخها و أخبارها ، وكأنه سجل تاريخهم و ماضيهم و ديوان علمهم ، و إلى هذا يشير قولهم : إن الشعر كان فى الجاهلية عند العرب ديوان علمهم و منتهى حكمهم به يأخذون و إليه يصيرون.»^١ ولذلك لاحظ الخليفة الثانى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، مكانة الشعر العربى القديم و اعتبره علماً ، و اعترف بأنه لم يكن للعرب علم أصح من الشعر ، فقال : «الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه.»^٢ وقال عبدالكريم النهشلى القيروانى : لما رأيت العرب المنشور يند عليهم وينفلت من أيدهم ، ولم يكن لهم كتاب يتضمن أفعالهم ، تدبروا الاوزان و الاغاريس ، فأخرجوا الكلام أحسن مخرج بأساليب الفناء فجاء هم مستويّاً ، ورأوه باقياً على مر الأيام ،

١- طبقات قحول الشعراء لابن سلام (بتحقيق الأستاذ محمود محمد شاكر) ج ١ ،

ص ٢٤

٢- المصدر السابق نفسه

فالفوا ذلك وسموه شعراً»^١

وروى الامام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى عن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنهما ، قال : كنا نجلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانوا يتناشدون الاشعار ، يتذكرون أشياء من أسر الجاهلية ورسول الله صلى الله عليه وسلم ساكت ، فربما تبسم.^٢ إن تبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم يرمز إلى رضا ، وكيف لا يرضى وهو أعلم الناس بأن أمة انقطعت عن ماضيها لا تستطيع أن تعيش طويلاً فيئذوب كيالها وتلاشى شخصيتها. وكان يعلم أيضاً أن الشعر يمثل تلك اللغة الكريمة التي اختارها الله سبحانه وتعالى لكتابه العزيز ، ولذلك كان يشجع أصحابه على إنشاد الشعر. و يروى لنا الامام مسلم بن الحجاج رحمه الله تعالى عن عمرو بن الشريد عن أبيه ، قال : «ردفت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً ، فقال : هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيئاً؟ قلت : نعم ، قال : هيه ! فأشدته بيتاً ، فقال : هيه ثم أنشدته بيتاً ، فقال : هيه ، حتى أنشدته مائة بيت»^٣ فكان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين قد عرفوا قدره فجعلوه في حسابهم وعنوا به عناية خاصة ، ذكر ابن رشيقي أن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه كتب إلى أبي موسى الأشعري رضى الله تعالى عنه : «مر من قبلك بتعلم الشعر ، فانه يدل على معالي الاخلاق ، و صواب الرأي ، و معرفة الانساب» وقال معاوية رضى الله تعالى عنه : «يجب على الرجل تأديب ولده ، والشعر أعلى مراتب الادب»^٤ وهذا عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنه ، كن يجلس بفناء الكعبة يفسر للناس القرآن ، وإذا هو كذلك جالس قد اكتنفه الناس يسألونه عن تفسير القرآن ، جاءه نافع بن الأزرق وسأله عن معاني لاكثر من مائة كلمة من مفردات القرآن فبن له معانيها ، واستشهد لكل كلمة بيت من الشعر الجاهلي^٥.

هكذا كان القرآن الكريم المحور الذي نشأت حوله المعارف الاسلامية وقامت لخدمته الدراسات العربية التي جذت في حياة العرب بعد الاسلام ، و تطورت ثقافتهم

١- الممتع في صنعة الشعر ، ص ١٨

٢- المسند ، ج ٥ ، ص ١٠٥ (دار صادر بيروت).

٣- الجامع الصحيح للامام مسلم ، كتاب الشعر حديث رقم (١) (ج ٤ ، ص ١٧٦٧ بتحقيق عبدالقواد باقى)

٤- العمدة ، ج ١ ، ص ٢٨

٥- المصدر السابق نفسه

٦- انظر : «الاتفاق في علوم القرآن» السيوطي^٦ ، ج ١ ، ص ١٥٨ - ١٧٥

فأصبح ثقافة غنية. واسعة فاستعنت لها لغة العرب بعد نزول القرآن. يقول الشيخ محمد الخضر حسين : ففضل الاسلام على اللغة العربية يظهر في غزارة مادتها وبراعة أساليبها ، واتساع مذاهب بيانها ، وكثرة الأغراض التي يتسابق إليها فرسان الخطابة والكتابة.^١

إن دعوة القرآن الحكيم وجهت إلى البشرية جمعاء ، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾^٢ وقال عز من قائل : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَلِمَةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ فانتشرت هذه الدعوة بين مشارق الأرض ومغاربها وكانت كل أمة إذا اعتنقت الاسلام ، اهتمت بكتاب الله عز وجل اهتماماً كبيراً ، وتعلمت العربية يقول الدكتور طه حسين : ما كاد العرب بعد الفتوح يدخلون في بلاد فارس ويستقرون فيها حتى تعلم الفرس هذه اللغة الجديدة ، وغلبت على السنة كثير منهم وأقلامهم. وما أكثر الفرس الذين استأثروا ببعض هذه العلوم حتى أصبحوا كأنهم أصحابها ، وكلنا يعلم مكان كتب سيبويه بين كتب النحو ، وكلنا يعلم أيضاً استئثار الفرس بتدوين علوم البلاغة العربية.

ويقول الدكتور طه حسين أيضاً : ومع أن الفرس قد أحبوا لغتهم الفارسية ونظموا فيها الشعر منذ أواسط القرن الرابع للهجرة فقد ظلت اللغة العربية ، لغة العلم والفلسفة عندهم إلى أواخر القرون الوسطى. وانظر إلى كتب ابن سينا والتفتازاني والسيد الجرجاني والطوسي وغيرهم. وكل هذا بفضل القرآن الكريم ، فبفضله انتشر الاسلام.^٣

ويقول الدكتور عدنان زر زور : أما دور القوة الواقية ، أو دور حفظ اللغة العربية الذي تم بفضل وجود القرآن الكريم فهو أخطر دور يمكن أن يؤديه كتاب اللغة من اللغات ، هذا إن كان قد وجد كتاب آخر أدى قريباً من مثل هذا الدور أو عشره في لغة من لغات الأرض . . . فوصول القرآن العربي إلى جميع الناس في عصر واحد لا يقل أهمية عن وصوله إليهم في جميع العصور. ومن هنا جل هذا الكتاب الكريم عن التحريف والتبديل مصداقاً وتفسيراً شاهداً نقرأه في كل جيل لقول الله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لِعَافِظُونَ. ﴾^٤

-١

-٢

-٣ نقلاً عن «دراسات قرآنية» ص ١٢ - ١٣

-٤ دراسات قرآنية ، ص ١٥

ويقول: «لقد وقف القرآن، وخصوصاً في الزمن الذي انقسمت فيه الدولة العربية الاسلامية إلى مدن ودويلات، حائلاً وسداً دون سريان اللهجات المحلية وانتشارها ولولا هذا الكتاب القرآن الكريم لما كان نصيب اللغة العربية من التجزؤ والانقسام بأقل منه في اللغة اللاتينية وما إليه اليوم... وبفضل هذا الكتاب الخالد بقيت الوحدة اللسانية والفكرية قائمة بين شعوب الانظار العربية، وبفضله كذلك تقرأ اليوم أدب العربية من عصر الجاهلية إلى العصر الحديث»^١

إن الحقيقة التاريخية قد أكدت فضل القرآن الكريم على اللغة العربية، وبفضله توسعت وتطورت فأصبحت أغنى اللغات العالمية ثروة لغوية، وأوسعها، وقامت ضد تحديات مهلكة، صابدة ولجت وتخلصت من تلك المعارك التي وجهت إليها من الخارج لاستئصالها، وكسرت تلك المعاول التي كانت تستخدم من الداخل - من أبناءها - لهدم قواعدها، قال الدكتور رمضان عبدالنواب: «لولا القرآن الكريم لاندثرت العربية الفصحى، وأصبحت لغة أثرية، تشبه اللاتينية أو السنسكريتية»^٢

وقد صدق العلامة ابن خلدون حين قال: تختلف لغة العرب لعمدنا، مع لغة مضر إلا أن العناية بلسان مضر من أجل الشريعة... حمل على ذلك الاستنباط والاستقراء، وليس عندنا لهذا العهد، ما يحملنا على مثل ذلك، ويدعونا إليه.»
فسبحان الله العلي العظيم والصلاة والسلام على رسوله النبي الكريم.

١- المصدر السابق، ص ١٥ - ١٦

٢- «فصول في فقه العربية» للدكتور رمضان عبدالنواب، ص ١١٥ (ط. مكتبة الخالجي بمصر)